

إعداد

عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر

غفر الله له ولوالديه ولمشايخه وللمسلمين أجمعين

الطبعة الأولى

١٤٤٥ / ٢٠٢٤


الحج
والإخبات لله جل جلاله

تمَّ تَـنْسِيقُ هذه المادة ومُراجعتها في



هاتف: ٠٠٧٧ ٠٣٥٠ ٥ ٩٦٥+ البريد الإلكتروني: maktab.etqan@gmail.com





إعداد

عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر

غفر الله له ولوالديه ولمشايخه وللمسلمين أجمعين

الطبعة الأولى

١٤٤٥ / ٢٠٢٤



مقدِّمة

الحمد لله رب العالمين، وصلىٰ الله وسلَّم علىٰ نبيِّنا محمَّدٍ، وعلىٰ آله وصحبه أجمعين.

أمّا بعد:

فإنَّ حجَّ بيتِ الله الحرام ركنٌ من أركان الإسلام العِظام، وهو يُعَدُّ مدرسةً عَظِيمةً مليئةً بالعِظاتِ البالغات، والدروس النافعات، والحاجُّ المُوَفَّقُ إذا اجتهدَ في أدائه وتكميلِه سيَغْنَمُ عند أداءِ هذه العِبادةِ الجليلةِ العديدَ مِنَ المنافِعِ والعِبَرِ؛ كما قال الله تبارك وتعالىٰ: ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَجِّ يَأۡتُوكَ رِجَالٗا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٖ يَأۡتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٖ ٢٧ لِّيَشۡهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمۡ﴾ [الحج:٢٧-٢٨].

وهذا أمرٌ من الله ﷻ لرسولِه إبراهيمَ الخليل ﵇ أن يؤذِّنَ ويُعْلِمَ الناسَ بالحجِّ، ويدعوَهم إليه؛ مِنْ أجلِ أن يشهدوا منافعَ الحَجِّ الدِّينيَّةَ والدُّنيويَّةَ الكثيرةَ والمتنوعةَ.

فمن هذه المنافع: غفرانُ الذُّنوب جميعًا؛ لقول رسول الله ﷺ: «**مَن حَجَّ لله فلَمْ يَرْفُثْ ولَمْ يَفْسُقْ رَجعَ كيَوْمَ ولَدَتْهُ أُمُّهُ**»(١).

ومن منافعِهِ أيضًا: الفوزُ بالجنَّة؛ لقوله ﷺ: «**والحَجُّ المَبْرورُ ليسَ لَهُ جزاءٌ إلَّا الجَنَّةُ**»(٢).

ومن منافعه: العتقُ من النِّيرانِ، فقد قال النبيُّ ﷺ: «**ما مِنْ يومٍ أكثَرَ مِنْ أَنْ يُعْتِقَ اللهُ فيهِ عَبْدًا مِنَ النَّارِ مِنْ يوم عَرَفَةَ، وإِنَّهُ ليَدْنو، ثُمَّ يُباهي بهم الملائِكَة...**»(٣).

---

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه» (١٥٢١)، ومسلم في «صحيحه» (١٣٥٠).

(٢) أخرجه البخاري في «صحيحه» (١٧٧٣)، ومسلم في «صحيحه» (١٣٤٩).

(٣) أخرجه مسلم في «صحيحه» (١٣٤٨).

ومن منافعِه أيضًا: أنَّه سَبَبٌ لسَعَةِ الرِّزق وطَرْدِ الفَقْرِ؛ فقد صحَّ عن النبيِّ ﷺ قولُه: «**تابِعوا بَيْنَ الحَجِّ والعُمرَةِ، فإنَّهما ينفِيانِ الفَقْرَ والذُّنُوبَ كما يَنْفِي الكِيرُ خَبَثَ الحديدِ والذَّهَبِ والفِضَّةِ**»(١).

فهذه بعض المنافِعِ العظيمة التي ترجِعُ علىٰ دينِ العبدِ وإيمانه وقلبِهِ بالصلاح والفلاحِ والنَّجاح.

فينبغي علىٰ من أكرمه الله سبحانه وتعالى بأداء الحجِّ أن يُهَيِّئَ نفسَه لشُهُود وتَحْصِيلِ هذه المنافع، وأن يحرِصَ علىٰ تتميمِ حَجِّهِ وتكميلِهِ؛ ليعودَ مِن حجِّه وقد غَنِمَ وظَفِرَ بالكثير من العوائد العظيمة؛ والتي سيكون لها الأثر الحميدُ البالغُ عليه في حياته وبعدَ مماته؛ بركةً ورفعةً وعُلُوًّا؛ عَمَلًا بقوله تعالىٰ: ﴿لِّيَشۡهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمۡ﴾ [الحج:٢٨].

---

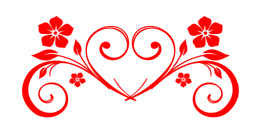
(١) أخرجه الترمذي في «جامعه» (٨١٠)، والنسائي في «سننه» (٢٦٣١)، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٢٠٠).

ومن منافع وبركات الحج العظيمة على القلوب صلاحًا واستقامةً -غير ما تقدَّم-: إخباتُ القلوبِ فيه إلى الله بما جعل اللهُ فيه من الشعائرِ التي تُؤثِّرُ في القُلوبِ إخباتًا وتواضعًا وذُلًّا وانكسارًا، ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾ [الحج: ٣٢].

ويدلُّ لذلك توسُّط صفاتِ المُخْبتينَ وبِشارتِهم آيات الحجِّ مِن سورة الحج في قوله ﷻ: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۗ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ ۖ فَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ ۖ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الحج: ٣٤-٣٧].

فالمتأمِّلُ في سياق الآيات المتقدِّمة يَجِدُ أنَّ الله تعالىٰ وهو يُبيِّنُ لعبادِهِ بعض أحكام المناسك من سورة «الحَجِّ» وأثرها علىٰ الحاجِّ؛ أَمَرَ نبيَّهُ ﷺ في معْرِضِ ذلك أن يُبشِّرَ المُخبتين من عبادِهِ ثُمَّ ذَكَرَ ﷻ صفاتهم.

فما معنىٰ الإخبات؟ وما صفاتُ المُخْبتينَ؟ وما مناسبةُ ذِكْرِهم ضِمْنَ آياتِ مناسِكِ الحَجِّ؟ وما البِشارة العظيمةُ التي أعدَّها الله ﷻ لهم؟[1]



---

(١) أصْلُ هذه المادة محاضرةٌ ألقيتُها بمنىٰ في موسم الحج لعام ١٤٤٤هـ، ثُمَّ فُرِّغَت وتمَّ إعدادُها للطِّباعةِ، فراجعتُها وزِدْتُ فيها بعض الفوائدِ والنُّصوصِ المتعلِّقة بموضُوعها، وأشكُرُ كُلَّ مَن شارك في نشرِ هذه الرِّسالة والعملِ عليها، وأخصُّ منهم الإخوةَ في مكتب إتقان للتحقيق والدراسات في دولة الكويت لمزيدِ عنايتهم بها.

معنى الإخبات

«**الإِخْبَاتُ**» لغةً مأخوذٌ من الخَبْتِ؛ وهو: المكان المنخفضُ المطمئنُّ الخاشعُ من الأرض؛ الذي تجتمع فيه المياه، وتنبتُ فيه خيرات الأرضِ، ويحصلُ به النفعُ العظيمُ.

وأمَّا «الإخباتُ» في الشَّرعِ فهو صِفَةٌ من صِفات القُلوبِ؛ كما قال تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الحج: ٥٤]، فنَسَبَ الله ﷻ الإخباتَ إلى قلوبِ المؤمنين.

ومعناه راجِعٌ إلى المعنى اللُّغويِّ السابق؛ **فالقلبُ المُخْبِتُ**: هو القلبُ المتواضِعُ الخاضِعُ الخاشِعُ؛ المطمئِنُّ لقَبولِ الحقِّ؛ المتهيِّئُ لاجتماع الخير وثباتِه فيه؛ كحالِ الأرضِ الخاشعةِ المطمئنَّة.

ولهذا جاءت عباراتُ أئمَّةِ التَّفسيرِ حولَ هذه المعاني، فمنهم مَنْ فسَّر ﴿ٱلْمُخْبِتِينَ﴾: بالمُطمئنِّين المتواضعين، ومنهم مَن فسَّرها: بالوَجِلين الخاشعين، ومنهم مَن فسَّرها: بالمُستَسْلمين لله تبارك وتعالى(١).

قال ابن القيِّم رحمه الله: «الخَبْتُ في أصل اللُّغة: المكانُ المُنْخَفِضُ من الأرض، وبه فسَّر ابنُ عبَّاس رضي الله عنهما وقتادةُ لفظَ: «المُخْبِتين»، وقالا: «هم المتواضعون».

وقال مجاهد: «المُخْبِتُ: المُطْمَئِنُّ إلى الله عز وجل، قال: والخَبْتُ: المكانُ المُطْمَئِنُّ من الأرض».

وقال الأخْفَشُ: «الخاشعون».

وقال إبراهيم النَّخعيُّ: «المُصَلُّون المُخْلِصُون».

وقال الكَلْبيُّ: «هم الرَّقيقةُ قلوبُهم».

وقال عمرو بن أوس: «هم الذين لا يَظلِمونَ وإذا ظُلِمُوا لم يَنْتَصِرُوا».

(١) انظر: «تفسير القران» لابن كثير (٥/ ٤٢٤).

وهذه الأقوالُ تدورُ على معنيين: التَّواضُعُ، والسُّكونُ إلى الله ﷻ، ولذلك عُدِّي بـ(إلى) تضمينًا لمعنى الطُّمأنينة والإنابةِ والسُّكون إلى الله»(١).

وقال رحمه الله: «والمُخْبِتُ: المُطْمَئِنُّ؛ فإنَّ الخَبْتَ من الأرضِ: ما اطْمَأنَّ فاسْتَنْقَعَ فيه الماءُ، فكذلك القَلبُ المُخْبِتُ؛ قد خَشَعَ واطمأنَّ؛ كالبُقْعةِ المُطْمَئِنَّةِ مِنَ الأرضِ الَّتِي يجري إليها الماءُ؛ فيَسْتَقِرُّ فيها»(٢).

وممَّا يُوَضِّحُ المعنى السَّابقَ للإخبات ويُؤكِّدُهُ: أنَّ الله ﷻ أمرَ عبادَهُ أوَّلًا بالإسلامِ له؛ الذي هو الخُضُوع والانقيادُ، ثُمَّ بعدَ ذلك بشَّرَ المُخبتين؛ فقال تبارك وتعالى: ﴿فَلَهُۥٓ أَسۡلِمُواْۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُخۡبِتِينَ﴾ [الحج: ٣٤].

فالإخبات صفةٌ عظيمة من صفات القلوب، لها عوائد جليلة وبركات متنوِّعة على المؤمن، أثنى الله ﷻ

(١) «مدارج السالكين» (٢/ ٩ ٠ ٢).
(٢) «كتاب الرُّوح» (ص٢٣٢).

علىٰ المُتَّصفين بها ثناءً عظيمًا، وذكرَ لهم مَوْعُودًا كريمًا، وبِشارةً عُظمىٰ بكُلِّ خيرٍ في الدُّنيا والآخرةِ، فجَديرٌ بكُلِّ عبدٍ مُؤمن أن يعرِفَها، وأن يُجَاهِدَ نفسَهُ علىٰ أن يكونَ مِنْ أهلِها؛ تَحَلِّيًا واتِّصافًا.

وإذا تبيَّن معنىٰ وحقيقةُ القلبِ المُخْبِتِ لله ﷻ فليُعْلَمْ أنَّه يقابِلُ هذا القلبَ نوعان من القلوب؛ القلبُ القاسي، والقلب الذي فيه مرضٌ، وقد جمعَ اللهُ ﷻ في كتابه بينَ هذه القلوب الثلاثة في سياقٍ واحدٍ في سورة الحج أيضًا، فقال ﷻ: ﴿لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَـٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الحج:٥٣-٥٤].

فذكر الله تعالىٰ في هذه الآيات ثلاثةَ قلوب؛ القلب القاسي، والقلب الذي فيه مَرَضٌ، والقلب المُخْبت.

فأمَّا القلبُ القاسي: فهو قلبٌ صَلْبٌ كالحَجَرِ، لا يَلِينُ إلىٰ الخير ولا إلىٰ الحقِّ، ولا يقبلُ الهِدايةَ، ولا تُكتَبُ فيه حقائِقُ الإيمان، ولا يعقِلُ الآياتِ والنُّذُرَ إذا عُرِضَت عليه؛ بل يُبادِرُ إلىٰ ردِّها والتَّكبُّرِ عليها، فقد صار قلبُهُ مأوىً للضَّلالات والزَّيغِ والفِتَنِ، لا يَعْرِفُ مَعْروفًا، ولا يُنْكِرُ مُنكَرًا؛ كما قال الله في وَصْفِ حالِ اليهود: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ [البقرة:٧٤].

وأمَّا القلبُ الذي فيه مَرَضٌ: فإنَّه قلبٌ قد حوىٰ شيئًا من أمراضِ القلوب التي زاحَمَتِ الحَقَّ الذي فيه، فهو في جهادٍ ومُدافعةٍ بين الحقِّ والباطِلِ في قلبِهِ، فإن تابَ صاحِبُهُ وأنابَ واجتهدَ في تزكيةِ قلبِهِ طَهرَ قلبُهُ، وذَهَبتْ آفاتُهُ وأمراضُهُ، وأمَّا إذا أهملَ إصلاحَ قلبِه، وتمادىٰ في غَيِّه وغفلتِهِ، وطال عليه الأمَدُ؛ فإنَّ مصيرَ قلبِهِ إلىٰ القَسْوةِ لا مَحالة؛ كما قال ﷻ: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الحديد:١٦].

وأمَّا **القلبُ الـمُخبِتُ**: فهو قلبُ أهل العلم والإيمان؛ الذين وصفهم الله بقوله: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُواْ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ﴾ [الحج: ٥٤].

فهؤلاء إذا تأمَّلوا آيات الله ﷻ واعتنوا بتدبُّرِها وعَقْلِها خَشَعتْ قلوبُهم، واطمأنَّتْ بها، ولانتْ لما فيها من النور والهِدايات ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾[الرعد:٢٨].

ومِنْ إخباتهم لله تبارك وتعالى أنَّهم إذا ذُكِّروا بآيات ربِّهم بادروا إلىٰ قَبولها، والإذعان لها؛ كما قال تعالىٰ في وصفهم: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّواْ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾[الفرقان:٧٣].

فالإِخْباتُ ثَمَرةٌ مِنْ ثِمارِ حُسْنِ الإيمان بالقُرآنِ؛ الذي هو وَحْيُ الله ﷻ، وذِكْرُه الحَكِيمُ؛ الذي به تحيا القلوبُ وتُخْبِت؛ ولنتأمَّل في هذين المعطوفين: قوله ﷻ: ﴿فَيُؤْمِنُواْ بِهِۦ﴾ أي: الوَحْي، ﴿فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ﴾؛ فالإخباتُ أثرٌ مِنْ آثار حُسن إيمانهم بوحي الله ﷻ.

قال ابنُ تيميَّة رحمه الله: «جَعَلَ اللهُ القلوبَ ثلاثةَ أقسامٍ: قاسيةً، وذاتَ مَرَضٍ، ومُؤمنةً مُخْبِتةً؛ وذلك لأنَّها إمَّا أن تكون يابسةً جامِدةً؛ لا تَلِينُ للحقِّ اعترافًا وإذعانًا، أو لا تكون يابسةً جامدةً.

فـ «**الأوَّل**»: هو القاسي؛ وهو: الجامِدُ اليابِسُ، بمنزلة الحَجَرِ؛ لا ينطبِعُ ولا يُكْتَبُ فيه الإيمانُ، ولا يرتَسِمُ فيه العِلْمُ؛ لأنَّ ذلك يستدعي مَحِلًّا لَيِّنًا قابلًا.

و«**الثَّاني**»: لا يخلو إمَّا أن يكون الحقُّ ثابتًا فيه لا يزولُ عنه؛ لقوَّتِه مع لِينه، أو يكون لِينُهُ مع ضَعْفٍ وانْحِلالٍ.

فالثَّاني هو الذي فيه مَرَضٌ، والأوَّلُ هو القويُّ اللَّيِّن؛ وذلك أنَّ القلبَ بمنزلةِ أعضاءِ الجَسَدِ؛ كاليدِ مثلًا، فإمَّا أن تكونَ جامِدَةً يابسةً لا تلتوي، ولا تبطِشُ، أو تَبْطِشُ بعُنفٍ؛ فذلك مثلُ القلبِ القاسي، أو تكونَ ضعيفةً مريضةً عاجزةً لضعفِها ومرضِها فذلك مثلُ الَّذِي فيه مرضٌ، أو تكون باطِشَةً بقُوَّةٍ ولِين فهو مثلُ القلبِ العَليمِ الرَّحيمِ؛

فبالرَّحمةِ خرجَ عن القَسْوَةِ، وبالعلمِ خَرَجَ عن المَرَضِ؛ فإنَّ المَرَضَ مِنَ الشُّكوك والشُّبهات؛ ولهذا وُصِفَ مَن عَدَا هؤلاء بالعِلْمِ والإيمانِ والإخباتِ»[١].

وقال رَحِمَهُ اللهُ: «سورةُ الحَجِّ فيها مكيٌّ ومدنيٌّ، وليليٌّ ونهاريٌّ، وسَفَريٌّ وحَضَريٌّ، وشِتائيٌّ وصَيفِيٌّ؛ وتضمَّنَتْ منازِلَ المَسِيرِ إلى الله بحيث لا يكون منزِلةٌ ولا قاطِعٌ يقطَعُ عنها، ويوجَدُ فيها ذِكرُ القُلوبِ الأربعة: الأعمىٰ، والمريض، والقاسي، والمُخْبِتُ الحيُّ المُطْمَئِنُّ إلى الله، وفيها مِنَ التَّوحيدِ والحِكَمِ والمَواعِظِ على اختصارها ما هو بيِّنٌ لِمَنْ تدبَّرَه، وفيها ذِكْرُ الواجِباتِ والمُسْتحبَّاتِ كلِّها؛ توحيدًا وصلاةً وزكاةً وحَجًّا وصِيامًا»[٢].

فإن سَعَىٰ المؤمنُ بقلبِه إلى هذه الصِّفةِ، واجتهدَ في تزكيةِ نفسِهِ وترقيتها في درجات الخاشعين، ومَنازلِ

---

(١) «مجموع الفتاوى» (١٣/ ٢٧٠).

(٢) «مجموع الفتاوى» (١٥/ ٢٦٦).

المُطِيعين المُخبتين لله ﷻ ظَفرَ وفاز بالبِشارة العظيمة التي أمرَ الله ﷻ نبيَّه محمَّدًا أن يُبشِّر بها المخبتين من عبادِهِ.

ومَن أراد أن يعرف قدر هذه الصِّفة وعُلُوِّ مكانتها فليتأمَّل قول الله ﷻ: ﴿وَبَشِّرِ ٱلۡمُخۡبِتِينَ﴾[الحج:٣٤]، **والقاعدة عند العلماء**: «أنَّ المتعلِّق إذا حُذِفَ عَمَّ وشَمَلَ كُلَّ خيرٍ وفضيلةٍ في الدُّنيا والآخرة»، فالبشارة هنا لم تُقيَّد وإنَّما ذُكرت هكذا مُطْلَقةً لتتناولَ كُلَّ فضيلةٍ وخيرٍ وبركةٍ في الدُّنيا والآخرة.

وليُتأمَّل في عظيم ثوابِهم عند الله قوله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخۡبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [هود:٢٣]، أي: خَضَعُوا له، واستكانُوا لعظمتِه، وذلُّوا لسُلطانِه، وأنابُوا إليه بمحَبَّتِه، وخوفِه، ورجائِه، والتَّضرُّعِ إليه.

وذِكْرُ الإخباتُ عِقبَ الإيمان والعمل الصالح مع أنَّه داخلٌ فيه يدلُّ على عِظَمِ شأنِ الإخباتِ، وعِظَمِ مكانَةِ المُخْبتينَ عِندَ الله، وعِظَمِ ثَوابهم.

ولهذا لمَّا كان النبيُّ ﷺ يَسألُ اللهَ ﷻ أن يعينَهُ على أنواعٍ من الأعمال الصالحة، جعلَ منها سؤال الله ﷻ أن يجعلَهُ مُخبتًا له؛ كما ورد في حديث ابن عباس رضي الله عنهما أنَّ النبيَّ ﷺ كان يقول في دعائه: «**رَبِّ أَعِنِّي ولا تُعِنْ عَلَيَّ، وانصُرْني ولا تَنْصُرْ علَيَّ، وامكُرْ لي ولا تَمكُرْ علَيَّ، واهْدِني ويَسِّرِ الهُدىٰ لي، وانصُرْني علىٰ مَنْ بَغىٰ عَلَيَّ، رَبِّ اجعلني لك شكَّارًا، لك ذكَّارًا، لك رَهَّابًا، لك مُطِيعًا، إِليكَ مُخْبِتًا، إِليكَ أَوَّاهًا مُنيبًا، رَبِّ تَقَبَّلْ تَوْبَتي، واغسِلْ حَوْبَتي، وأَجِبْ دَعْوَتي، وَاهْدِ قَلْبي، وسَدِّدْ لِساني، وثبِّتْ حُجَّتي، واسْلُلْ سَخِيمَةَ قلبي**»(١).

فتضمَّنَ هذا الدعاءُ أكثرَ من عشرين مَطْلبًا؛ كُلّها من المطالبِ العِظام، وكان مِنْ ضمنها قوله ﷺ: «**إِليكَ مُخْبِتًا**»، وفي روايةٍ: «**لكَ مُخْبِتًا**»؛ كما في الآيتين: ﴿فَتُخْبِتَ لَهُۥ

---

(١) أخرجه أبو داود في «سننه» (١٥١٠)، والتِّرمذيُّ في «جامعه» (٣٥٥١)، وابن ماجه في «سننه» (٣٨٣٠)، وصحَّحه الألبانِيُّ في «صحيح الجامع» (٣٤٨٥).

قُلُوبُهُمۡ﴾، ﴿وَأَخۡبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ﴾ [هود:٢٣]، فهو إخباتٌ لله وإخباتٌ إلى الله ﷻ.

وإنَّ من توفيق الله ﷻ لِمَن شاء من عِباده مُلازَمتَهم هذا الدعاء، ودوامَ سؤالهم لهذه المطالب الرَّفيعة؛ لينالوا الفضلَ الكبيرَ، والبِشارةَ العظيمة التي وعد بها رب العالمين.

وقد ذكر الحافظ أبو حفص عمر بن علي البزَّار في ترجمة شيخ الإسلام ابن تيمية أنَّ هذا الدعاءَ كان غالبَ دعائِه رَحِمَهُ اللهُ(١).



(١) «الأعلام العليَّة في مناقب شيخ الإسلام ابن تيمية» (ص٣٧).

الحجُّ والإخبات لله جل جلاله

إنَّ المؤمنَ الموفَّقَ إذا عَلِمَ ما تقدَّمَ من عِظَمِ منزلةِ الإخبات لله عز وجل، وما أعدَّهُ الله تبارك وتعالى للمُخبتينَ وبشَّرهم به؛ حَرَصَ كُلَّ الحِرصِ على الأسبابِ المُفْضيةِ إلى هذه الدَّرجة الرفيعة، والمَكْرُمة العظيمة.

فمن هذه الأسبابِ: ما تقدَّمَ من ضرورة الدعاء، وسؤال الله عز وجل أن يجعلَهُ مُخْبِتًا له، مُنيبًا إليه.

ومن الأسباب المعينةِ للقلبِ على الإخبات لله سبحانه وتعالى: تدبُّر كلامِ الله عز وجل، ودوامُ تلاوتِهِ، وطلبُ هداياتِهِ، والتخشُّعُ في قراءَتِه، والعملُ بأحكامِهِ وإرشاداته، كما قال عز وجل: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ [الأنفال:٢].

ومن الأسباب أيضًا: ما ذكره الله سبحانه وتعالى في قوله: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [الحج:٣٤-٣٥].

فذكر صفات المخبتين الجامعة التي إن وُجدت في العبد مجتمعةً دلَّت علىٰ صدق إخباته إلىٰ الله ﷻ.

وهي صفاتٌ أربع للمخبتين:

أوَّلها: وَجَلُ القلبِ عند ذكر الله ﷻ، والوَجَلُ كما قال العلماء: خوفٌ مع محبَّة وهَيبةٍ، فهذه صفةُ القلبِ المُخبِتِ إلىٰ الله ﷻ؛ أنَّه إذا ذُكر اللهُ عندَه وَجِلَ قلبُه، وهذا الوَجَلُ لقلبِه ناشِئٌ عن حُسنِ معرفتِه بربِّه، كما قال الله ﷻ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر:٢٨]، أي: العالِمين بالله.

والصِّفة الثَّانية: الصَّبر علىٰ أقدارِ الله المؤلمةِ، وما من عبدٍ إلَّا وهو مبتلًى بأنواعٍ من البلايا في هذه الحياة الدُّنيا، قال ﷻ: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة:١٥٥].

والصِّفة الثَّالثة: إقامةُ الصَّلاة، أي: حِفاظًا عليها، وإتيانًا بها قائمةً بأركانِها وشُروطِها وواجِباتِها؛ خُضُوعًا وخُشُوعًا وحُسْنَ تقرُّبٍ إلىٰ الله ﷻ.

والصِّفة الرَّابعة: بَذْلُ المالِ وإنفاقُه في سبيل الله ﷻ في وُجُوهِ الخَيرِ وأبوابِه المُتَنَوِّعة مِنْ واجبٍ ومُسْتَحَبٍّ، طيبةً بذلك النَّفسُ، راجيةً موعودَ الله ﷻ وعظيمَ ثوابِه.

قال ابن القيِّم رحمه الله: «**فذكر للمُخبتين أربع علاماتٍ:** وجلُ قُلُوبِهم عند ذِكْره، والوَجَلُ خوفٌ مقرونٌ بهيبةٍ ومحبَّة، وصبرُهم على أقداره، وإتيانُهم بالصَّلاة قائمة الأركان ظاهرًا وباطنًا، وإحسانُهم إلى عباده بالإنفاق ممَّا آتاهم، وهذا إنَّما يتأتَّى للقلبِ المُخْبِتِ...

والمقصود: أنَّ القلبَ المُخْبِتَ ضِدُّ القاسي والمريض، وهو سبحانه الذِي جعلَ بعضَ القلوبِ مُخبتًا إليه، وبعضَها مريضًا، وبعضَها قاسِيًا، وجعلَ للقَسْوةِ آثارًا، وللإِخبات آثارًا.

فمِن آثار القسوة: تحريفُ الكَلِمِ عن مواضِعِه، وذلك من سُوءِ الفَهمِ وسُوءِ القصدِ، وكلاهما ناشِئٌ عن قَسْوَةِ القلبِ.

ومنها: نِسْيانُ ما ذُكِّر به؛ وهو: تركُ ما أُمِرَ به علمًا وعملًا.

ومِنْ آثارِ الإخبات: وَجَلُ القُلوبِ لذكرِه سبحانه، والصَّبرُ على أقدارِه، والإخلاصُ في عبوديَّتِه، والإحسانُ إلى خلقه»(١).

ومن أعظم الأسبابِ الموصِلةِ إلى هذه المنزلةِ الرَّفيعةِ:
أداءُ مناسِكِ الحَجِّ، والحِرصُ على تكميلها وإتقانِها، فقد تقدَّم أنَّ الله تعالى لمَّا بيَّنَ في كتابه الكريم عددًا من أحكام الحجِّ في «سورة الحجِّ»، أمرَ نبيَّه محمَّدًا ﷺ أن يُبشِّر المخبتين من عبادِه، فقال ﷻ: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ﴾ [الحج: ٣٤]، وهذا يدلُّ أنَّ أداء مناسك الحجِّ من أعظم أسبابِ صلاحِ القلبِ وإخباته لله ﷻ.

فإنَّ للحَجِّ أثرًا عظيمًا في تحقيق هذا الإخبات من حين الشُّروعِ فيه، إلى أن يُتِمَّ الحاجُّ نُسُكَهُ، ويظهرُ ذلك ويتَّضِحُ بِذِكْرِ بعضِ مظاهِرِ الإخبات في مناسك الحجِّ:

(١) «شفاء العليل» (١/ ٣٤٨ - ٣٤٩).

۞ فأوَّلُ ما يبدأُ الحاجُّ هذه الرِّحلةَ من الميقاتِ يبدؤها بالتَّواضُعِ والانكِسار لله ﷻ؛ فإنَّه قبلَ إحرامِهِ سيعْمَدُ إلىٰ لباسِهِ الذي اعتاده وأَلِفَهُ، وكان يتجمَّلُ به في بلده؛ فيتجرَّدُ من ذلك كُلِّه، ويغتسِلُ ويتطيَّبُ، ثمَّ يَستبدِلُهُ بلُبسِ الإزارِ والرِّداء الأبيضين النظيفين؛ طاعةً وإخباتًا وتواضُعًا لله ﷿، ويستوي في هذا اللباس كُلٌّ من الكبيرِ والصَّغيرِ، والحُرِّ والعبدِ، والرَّئيسِ والمرؤوسِ، والغنيِّ والفقيرِ؛ كلُّهم علىٰ هيئة واحدةٍ.

۞ ثمَّ يَحْسِرُ الحاجُّ عن رأسِه، ويَضَعُ ما كان يلبسُهُ علىٰ رأسِهِ من عِمامَةٍ أو غُترةٍ أو غيرها ممَّا يُلْبَسُ في بلده؛ تواضُعًا وانكِسارًا لله ﷻ.

۞ وبعدَ ذلك يُشرَعُ للحاجِّ أن يُلبِّيَ من حين إحرامِهِ من الميقات إلىٰ أن يَصِلَ إلىٰ بيت الله ﷿ المُعَظَّم: «**لبَّيك اللهمَّ لبَّيك، لبَّيك لا شريكَ لك، لبَّيكَ إنَّ الحمدَ والنِّعمةَ لك، والمُلك، لا شَرِيك لك**»، ويستمرُّ بتردادِ هذه التلبيةِ

العظيمة وقتَ أداء مناسك الحجِّ، رافِعًا بها صوتَه لمرَّاتٍ عديدةٍ، استجابةً وانكِسارًا وخضُوعًا وطاعةً لله ﷻ، ويُعَدُّ هذا المشهدُ من الدُّروسِ العظيمة التي يتجلَّى فيها مَظْهرُ الإخبات لله تبارك وتعالى.

۞ فإذا وصلَ إلى بيتِ الله الحرام، وبدأ بالطواف حول الكعبة، يرمُلُ في الثَّلاثةِ الأشواط الأُوَل، ويمشي في الأربعة المتبقِّيةِ، ثمَّ يذهب إلى الصَّفا والمروة ليطوف بينهما سبعةَ أشواطٍ، يسعى بين العَلَمَين، ويَصبرُ على ما يَعرِضُ له مِنَ المشقَّة، ويُكابِدُ نفسَهُ؛ طَلَبًا لما عند الله من الأجر، وخضوعًا وإخباتًا وتذلُّلًا للباري تبارك وتعالى مكثرًا من ذكره ومناجاته.

وفي هذا تقول أمُّ المؤمنين عائشةُ الصدِّيقة رضي الله عنها: «**إنَّما جُعِلَ الطوافُ بالبيتِ، والسَّعيُ بين الصفا والمروة لإقامةِ ذكر الله**»(١).

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في «مصنَّفه» (١٥٣٣٣).

۞ ثُمَّ في يوم عرفةَ يجتمعُ جميع الناسِ علىٰ صَعيدِ عرفةَ مِنْ أنحاءِ الدُّنيا، وأرجاءِ المعمورةِ، بألسنةٍ مُختلفةٍ، وألوانٍ مُتباينة، وبُلدانٍ متنوِّعةٍ، في يوم ومكانٍ ووقتٍ واحِدٍ، والذي جمعَهم هذا الجمعَ هو ربُّ العالمين جل جلاله.

فبعدما كان كُلُّ واحِدٍ من الحَجيج في بيته بين أولادِه، أو مُنشَغِلًا بتِجارتِه ومصالِحِه؛ انصرفوا عن هذا كُلِّه ليقِفوا عشيَّةَ عرفةَ في صعيدٍ واحِدٍ؛ تذلُّلًا وإخباتًا وطلبًا للمغفرة من ربِّ العالمين.

۞ ثمَّ ينفِرُ الحجيجُ إلىٰ مزدلفة؛ وهي المَشْعَرُ الحرام، وذلك بعد غروب الشَّمسِ من عَشِيةِ يومِ عرفةَ.

فيجتمعون فيها تلك الليلة، ويبيتون فيها، بعيدًا عن مساكنهم وفُرُشهم؛ طاعةً وإخباتًا لله عز وجل، فإذا استيقظوا وصَلَّوا الفجرَ فيها، قاموا مُستَقبلي القِبلةَ يذكرون الله سبحانه وتعالى، ويدعُونَه، ويُلِحُّونَ عليه بالطَّلب إلىٰ أن يحصُلَ الإِسْفارُ، فيَدْفعون إلىٰ مِنًى قبل أن تَطلعَ الشمسُ.

۞ فينطَلِقُون إلىٰ مِنًى؛ ليرموا جمرةَ العقبة الكبرىٰ في يومِ العيد، وهو يوم الحجِّ الأكبر؛ العاشر من ذي الحجَّة، ويتهيَّؤوا بعد ذلك لنحرِ الهَدَايا في هذا اليوم العظيم؛ كما قال تعالى: ﴿وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ ۖ فَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ ۖ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الحج:٣٦-٣٧]، فيبذُلُون أموالَهم في شراءِ هذه الهدايا، ويَنْحَرُونها، ثم يَطعمونَ منها، ويُطعمون القانِعَ والمُعْترَّ -أي: الفقير الذي لا يَسأل؛ تقنُّعًا، وتعفُّفًا، والفقير الذي يَسأل-؛ قُربانًا لربِّ العالمين جل جلاله، وابتغاءَ مرضاتِه وحدَهُ لا شريك له.

۞ ثُمَّ يعمِدُ كلٌّ منهم إلىٰ شعرِ رأسِهِ فيحْلِقُهُ أو يقصِّرُهُ، ويقضي تَفَثَهُ؛ وهو: إزالة الأذىٰ الذي لحقَهُ في

حالِ الإحرام؛ من الأخذِ من الشَّاربِ، وقَصِّ الأظفارِ، وإزالةِ شعرِ العانة إن احتاجَ ذلك، ثمَّ يكون منهم التهيؤ والتَّطيُّبُ استعدادًا للطوافِ بالبيتِ العتيقِ؛ كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا۟ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا۟ نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا۟ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾[الحج: ٢٩].

يفعلون ذلك كُلَّه بخشوعٍ وخُضوعٍ ليس لشيءٍ إلا ابتغاء رِضوان الله، وطلبًا لمغفرته، حتى يُتِمُّوا بقيَّةَ أعمالِ حجِّهم؛ مخبتين منيبين لله جل جلاله؛ لينالوا البِشارةَ التي ذكرها ربُّ العالمين في قوله: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ﴾ [الحج: ٣٤].

قال أبو حيان الأندلسي رحمه الله: «وناسَبَ تَبْشِيرُ مَنِ اتَّصفَ بالإخباتِ هنا لأنَّ أفعالَ الحَجِّ؛ مِنْ: نَزْعِ الثِّيابِ، والتَّجَرُّدِ مِنَ المَخِيطِ وكَشْفِ الرَّأسِ والتَّرَدُّدِ في تلك المواضِعِ الغَبَرَةِ المُحَجَّرَة، والتَّلَبُّسِ بأفعالٍ شاقَّةٍ لا يعلَمُ معناها إلا اللهُ تعالى؛ مُؤْذِنٌ بالاسْتِسْلامِ المَحْضِ، والتَّواضُعِ المُفْرِطِ؛ حيث يخرُجُ الإنسانُ عن مألوفِه إلى أفعالٍ غَريبةٍ،

ولذلك وَصَفَهم بالإِخْباتِ والوَجَلِ إذا ذُكِرَ اللهُ تعالىٰ، والصَّبرِ علىٰ ما أصابهم مِنَ المَشاقِّ، وإقامةِ الصَّلوات في مَوَاضعَ لا يُقِيمُها إلا المؤمنون المُصْطَفون، والإِنْفاقِ ممَّا رزَقَهُم؛ ومنها الهَدايا التي يُغالُون فيها»[١].

وقال محمد صديق خان رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ولا يخفىٰ حُسْنُ التَّعبيرِ بالـمُخْبِتِين هنا من حيثُ إنَّ نزولَ الخَبْتِ مُناسِبٌ للحجَّاجِ؛ لِمَا فيهم مِن صِفاتِ المُتواضِعِين؛ كالتَّجَرُّدِ عن اللِّباسِ وكَشْفِ الرَّأسِ، والغُربةِ عن الأوطان»[٢].

فيجبُ علىٰ الحاجِّ الناصِحِ لنفسِهِ أن يستحضرَ هذه المعاني الجليلة، وأن يراقِبَ قلبَهُ وتأثُّرَهُ بهذه المنازل والمقامات العظيمة عند تأديةِ المناسك، وينظر هل أثَّرَ الحجُّ في قلبه إخباتًا وتواضُعًا لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؟

---

(١) «البحر المحيط في التفسير» (٧/ ٥٠٨).

(٢) «فتحُ البيان في مقاصد القرآن» (٩/ ٤٩-٥٠)، وأشار إلىٰ هذا المعنىٰ في ذكر البشارة في آيات المناسك من سورة الحجِّ: الألوسيُّ في «روح المعاني» (٩/ ١٤٧)، والشِّهاب في حاشيته علىٰ «تفسير البيضاوي» (٦/ ٢٩٦-٢٩٧).

فإنَّ من علامات قبول الحجِّ وحصولِ ثمرتِه أن يكونَ للحجِّ أثرٌ على الحاجِّ، وأن تكون حالُ المُسْلم بعد الحَجِّ أحسنَ من حالِهِ قبله؛ كما قال ﷻ: ﴿وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا﴾[الشورى:٢٣]، وقال ﷻ: ﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى﴾[مريم:٧٦].

وهذا الإخباتُ في القلبِ لا بدَّ أن يظهرَ أثرُهُ على الجوارِحِ، وقد كان عبد الله بن مسعود رضي الله عنه إذا رأى الرَّبيعَ بنَ خُثَيم قال: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ﴾[1]؛ لِمَا يرى في سَمْتِه وحالِه مِن أَثرِ الإخباتِ عليه.

وفي رواية أن ابن مسعود رضي الله عنه قال له: «يا أبا يزيد، لو رآكَ رسولُ الله ﷺ لأحبَّك، وما رأيتُكَ إلا ذَكَرْتُ المُخْبِتِين»[2].

وقال محمودِ بن خالدٍ: «سمعتُ أبي يقول: ما قرأتُ هذه الآية: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ﴾ إلا ذَكَرْتُ سعيدَ بنَ جُبيرٍ»[3].

---

(١) أخرجَهُ ابن المبارك في «الزهد» (١٧٦).

(٢) أخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» (١٠٢٨٦).

(٣) أخرجه ابنُ المُقرئ في «معجمه» (١١٨٨).

والإخباتُ مرتقًى يتطلَّبُ مِنَ العبدِ أن يُجاهِدَ نفسَهُ إلىٰ أن تَسْكُنَ وتطمئِنَّ بنزُولها منازلَ المُخْبِتين، ولهذا يقول ابن القيِّم رحمه الله في ثنايا حديثه عن منزلةِ الإخباتِ: «فالنَّفس جَبَلٌ عظيمٌ شاقٌّ في طريقِ السَّير إلىٰ الله عز وجل، وكلُّ سائرٍ فلا طريقَ له إلَّا علىٰ ذلك الجبَلِ، فلا بُدَّ أن ينتهيَ إليه، ولكن منهم مَن هو شاقٌّ عليه، ومنهم مَن هو سَهْلٌ عليه، وإنَّه ليسيرٌ علىٰ مَن يسَّره اللهُ عليه.

وفي ذلك الجبَلِ أَوْدِيةٌ وشُعُوب، وعَقَبات ووُهُودٌ، وشَوْكٌ وعَوسَجٌ، وعُلَّيْق وشِبْرِق، ولُصُوصٌ يقطعونَ الطَّريق علىٰ السَّائرين، ولا سيَّما أهل اللَّيل المُدْلِجين، فإذا لم يَكنْ معهم عُدَدُ الإيمان، ومَصابيحُ اليَقين تتَّقِدُ بزَيْتِ الإخباتِ، وإلَّا تَعلَّقَتْ بهم تلك المَوانِعُ، وتَشَبَّثَتْ بهم تلك القَواطِعُ، وحالتْ بينهم وبينَ السَّيرِ؛ فإنَّ أكثرَ السَّائرين فيه رَجَعوا علىٰ أعقابِهم لمَّا عَجَزُوا عن قطعِه واقتحام عقباتِه، والشَّيطانُ علىٰ قُلَّة الجبَلِ -أي: أعلاه- يُحَذِّرُ النَّاسَ مِن

صُعُودِهِ وارتقائِهِ، ويخوِّفُهُم منه؛ فتَتَّفِقُ: مَشَقَّةُ الصُّعود، وقُعُودُ ذلك المُخَوِّف علىٰ قُلَّته، وضَعْفُ عزيمةِ السَّائر ونيَّته؛ فيتولَّدُ مِن ذلك: الانقطاعُ والرُّجُوعُ، والمعصومُ مَن عَصَمَهُ الله.

وكُلَّما رَقِيَ السَّائِرُ في ذلك الجَبَلِ اشتدَّ به صِياحُ القاطِعِ، وتحذيرُهُ وتخويفُهُ، فإذا قَطَعَهُ وبَلَغَ قُلَّتَهُ؛ انقَلَبَتْ تلك المَخاوف كُلُّهُنَّ أَمَانًا، وحينئذٍ يَسْهُلُ السَّير، وتزولُ عنه عَوارِضُ الطَّرِيقِ ومشقَّةُ عَقَباتها، ويرىٰ طَرِيقًا واسِعًا آمنًا يُفْضِي به إلىٰ المَنازِلِ والمَنَاهِلِ، وعليه الأَعلامُ، وفيه الإِقاماتُ قد أُعِدَّتْ لرَكْبِ الرَّحمن.

فبين العبدِ وبينَ السَّعادةِ والفلاحِ: قُوَّةُ عزيمةٍ، وصَبرُ ساعةٍ، وشجاعَةُ نَفْسٍ، وثَباتُ قَلبٍ، والفَضْلُ بيدِ الله يُؤتِيه مَن يشاء، والله ذو الفَضْلِ العَظيم»(١).

---

(١) «مدارج السَّالكين» (٢/ ٢١٥).

وليعلمِ الحاجُّ أنَّ أعظمَ ما يبلغُ بالقلبِ درجةَ الإخباتِ لله ﷻ توحيدُ الله ﷻ أثناء تأدية مناسِك الحجِّ، فإنَّ الحجَّ -بل الدِّين كلُّه- قائمٌ على توحيدِ الله ﷻ وإخلاصِ العبادةِ له؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ﴾ [البينة:٥].

ولا أدلَّ على ذلك من التَّلبيةِ التي يبدأُ بها الحاجُّ نُسُكَهُ، وهي قوله: «**لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إنَّ الحَمْدَ والنِّعمةَ لك والمُلك، لا شريكَ لك**»؛ فإنَّ معناها: أنا مُسْتَجِيبٌ ومطيعٌ لأمرك، ومنقادٌ لشرعِكَ ربَّنا.

وتكرار: «لَبَّيك اللهم لَبَّيك» يُرادُ بهِ: استجابةٌ يتبعُها استجابةٌ، وامتِثالٌ يتبعُهُ امتثالٌ، وانقيادٌ يتبعُهُ انقيادٌ.

وقد تضمَّنت هذه التلبيةُ العظيمةُ نوعَيِ التَّوحيد؛ العِلميِّ والعَمَليِّ، فإنَّ التَّوحيدَ الذي خلقَ اللهُ تعالى الخلقَ لأجلِه وأَوْجَدَهُم لتحقيقِه ينقسِمُ إلى نوعين:

* توحيدٌ عِلْمِيٌّ: دلَّ عليه قولُه تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ وَمِنَ ٱلۡأَرۡضِ مِثۡلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلۡأَمۡرُ بَيۡنَهُنَّ لِتَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عِلۡمَۢا﴾ [الطلاق:١٢].

* وتوحيدٌ عَمَلِيٌّ: دلَّ عليه قولُ اللهِ سبحانه: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ﴾[الذريات:٥٦].

فقول الـمُلبِّي: «لبَّيك اللهمَّ لبَّيك، لبَّيك لا شريكَ لك لبَّيك» يتضمَّنُ التوحيدَ العَمَليَّ.

وقوله: «إنَّ الحَمْدَ والنِّعمةَ لك والمُلك، لا شريكَ لك» يتضمَّنُ التَّوحيد العِلميَّ.

ولهذا يقول الصحابي الجليل جابر بن عبد الله الأنصاري رضي الله عنهما واصِفًا تلبيةَ رسول الله: «**فأَهَلَّ بِالتَّوْحيدِ؛ لبَّيكَ اللَّهُمَّ لبَّيكَ، لبَّيكَ لا شريكَ لك لبَّيكَ، إِنَّ الحَمْدَ والنِّعْمَةَ لك، والمُلْكَ لا شَرِيكَ لَكَ**»[١].

(١) أخرجه مسلمٌ في «صحيحه» (١٢١٨).

فكلَّما قَوِيَ حظُّ الحاجِّ في حَجِّه مِن تَحقيقِ التَّوحيدِ وتحقيقِ الاسْتِسْلامِ لله سبحانه وتعالى؛ قَوِيَ حظُّهُ مِن إخباتِ القَلْبِ لله عز وجل.

نسألُ الله تعالىٰ أن يجعلَنا له حامدين، له شاكرين، إليه مُخْبِتين مُنِيبين، وأن يهدِيَنا، ويُيَسِّر الهدىٰ لنا، وسائِرَ المُؤمنين.

وأن يُيسِّر لحجَّاج بيت الله الحرام حجَّهم، وأن يعينَهم علىٰ أدائِه علىٰ الوجهِ الذي يُرضيه، وأن يتقبَّلَه منهم بمنِّه وكرمِه، إنه سميعٌ مُجيبٌ قريبٌ.

وصلىٰ الله علىٰ نبيِّنا محمَّدٍ، وعلىٰ آله وصحبه وسلِّم.





قال أبو حيان الأندلسي رحمه الله:

«وناسَبَ تَبْشِيرُ مَنِ اتَّصفَ بالإخباتِ هنا لأنَّ أفعالَ الحَجِّ؛ مِنْ: نَزْعِ الثِّيابِ، والتَّجَرُّدِ مِنَ المَخِيطِ وكَشْفِ الرَّأسِ والتَّرَدُّدِ في تلك المواضِعِ الغَبَرةِ المُحَجَّرة، والتَّلَبُّسِ بأفعالٍ شاقَّةٍ لا يعلَمُ معناها إلا اللهُ تعالى؛ مُؤْذِنٌ بالاسْتِسْلام المَحْضِ، والتَّواضُعِ المُفْرِطِ؛ حيث يخرُجُ الإنسانُ عن مألوفِه إلى أفعالٍ غَريبةٍ، ولذلك وَصَفَهم بالإِخْباتِ والوَجَلِ إذا ذُكِرَ اللهُ تعالى، والصَّبرِ على ما أصابهم مِنَ المَشاقِّ، وإقامةِ الصَّلوات في مَواضعَ لا يُقِيمُها إلا المؤمنون المُصْطَفون، والإِنْفاقِ ممَّا رزَقَهُم؛ ومنها الهَدايا التي يُغالُون فيها».

«البحر المحيط في التفسير» (٧/ ٥٠٨).